على هامش معالم التقريب *

العبودية لله

يتوقف الأستاذ الجليل محمد عبد الله محمد، وقفة تأمل، ليقول إن نقيض الاتجاه إلى الله - فى الحقيقة - هو الاتجاه الشخصى .. التمحور فى الذات باتجاه الآدمى دائما وأبدا إلى شخصه .. لا يعتنى بسواها، ويصرف كل همه لحمل الآخرين - بالترغيب أو الترهيب - على الاتجاه إليه هو باعتبار شخصه غاية نهائية مطلقة يجب أن يُصرف إليها الاهتمام والعناية.

والصورة الصارخة لهذا الاتجاه الشخصى القاهر، نجدها فى الملوك والسلاطين والحاكمين بأمرهم والمستبدين بعامة.. ومن هؤلاء يتسرب غالبا هذا الداء .. داء الاتجاه الشخصى .. يتسرب ابتداء إلى أتباعهم وحاشيتهم عناية بأنفسهم واهتماما بأشخاصهم وتقديم أنفسهم على من دونهم فى سلم التبعية للملك أو السلطان أو الحاكم بأمره .. وتتسع هذه الدوائر شيئا فشيئا كل يريد أن يركب من دونه، وأن يعتنى بشخصه دون غيره، حتى يصير المجتمع مسرحا ضخما للاتجاهات المتمحورة فى الشخصية .. يعتريه عدم المبالاة مع سيادة النفوذ والمال!!

ومن يتأمل فى سيرة رسول القرآن - صلى الله عليه وسلم - يعرف أن تاريخ حياته هو مفتاح كنوز سنته . حياته عليه الصلاة والسلام حياة روح لم تفارق قط الاتجاه إلى الله لحظة فى عام أو

---

* المال ٢٠١١/٥/١١

خاص من أموره الشخصية .. ولم تنس قط عبوديتها لله عز وجل، ولم تحاول قط - فعلاً أو قولاً، صراحة أو ضمناً - لم تحاول حمل أحد على نسيان عبوديتها - عبودية النبى - لله عز وجل، أو عدم تذكر عبوديتها - عبودية النبى - له سبحانه.. فالمسلمون جميعاً من نيف وألف وأربعمائة سنة وإلى آخر الدهر، يقرنون عبوديته برسالته، فيرددون صباح مساء، سراً وعلانية، أن محمداً عبده ورسوله.

كل ذلك مع أن حياته عليه الصلاة والسلام - حياة إنسان حقيقى من كل وجه .. إنسان مقتنع ببشريته أتم الاقتناع، لا يتصل منها ولا يتعالى عليها، بل راض عنها كل الرضا، قابل لها قبولاً خالياً من أى تحفظ أو تصنع أو تستر أو مداراة .. فقد اختاره الله تعالى نبياً رسولاً للناس، لأنه إنسان حقيقة وفعلاً .. من دلائل نبوته أنه - صلى الله عليه وسلم - يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .. فيروى القرآن المجيد من اعتراضات المنكرين المعاندين : " وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَّسْحُورًا * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا * تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ...." (الفرقان ٧-١٠) . ولا يغادر القارئ فى سورة الفرقان إلا ويقرأ من قوله تبارك وتعالى : " وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا " (الفرقان ٢٠).

إن سنة النبى المصطفى عليه السلام - هى أولاً وأساساً : حياته فى الله .. هى ذلك التيار الواعى المطرد الحريان على حد التعبير الجميل للأستاذ الجليل محمد عبد الله محمد .. هذا التيار الموحه

أصلياً إلى هداية الإنسان .. أى إنسان وكل إنسان - فى اتجاه الله عز وجل .. ذلك التيار جرى ظاهرياً - للضرورة - فى محيطه الجغرافى التاريخى للنبي صلى الله عليه وسلم، أى إلى من قبلوه وصدقوه وآمنوا برسالته وإلى من رفضوه وأنكروه وقاوموه فى ذلك الجزء (الجغرافى) من العالم خلال الجزء (التاريخى) الذى عاش فيه عليه الصلاة والسلام حياته على الأرض .. فى ذلك التيار يجد المسلم خلق النبى صلى الله عليه وسلم ومعالم أخلاقه الشريفة مرتسمة بوضوح شديد فى أحداث ذلك المحيط التاريخى الجغرافى، حاملة هذه المعالم النيرة فى السنة المطهرة.

فلا يفهم السنة من لا يلتفت إلى شدة إحساسه صلى الله عليه وسلم - بخطر تسرب المال إلى حيث روح الإنسان، وإلى حيث العلاقات الإنسانية العميقة، أو من لا يلتفت إلى شدة عنايته صلى الله عليه وسلم - بفهم الناس كأرواح وأنفس وأبدان، لا كمجردات نظرية أو نوعية، ومخاطبته عليه الصلاة والسلام لكل آدمى من أرضية هذا الفهم الفعلى الواقعى، وليس من علياء السلطة أو الجاه أو النظر الفقهى أو الفكرى، مخاطبة مفعمة بما يقنع الآدمى أنه عليه السلام يفهمه تمام الفهم.

كذلك لا يفهم السنة من ينسى نفوره الهائل - عليه وآله الصلاة والسلام - من الرخاوة والكسل والبطء والعجز والدلة والجبن .. ثم لا يفهم السنة من يفوته فهم المصطفى الكامل لطبيعة محيطه وانقسام ذلك المحيط إلى وحدات منفصلة مختلفة الأعراق واللهجات بل واللغات، يقتات أغلبها على غزو بعضها بعضاً، ويتشبث كل منها بماضيه وعداواته وثاراته ومفاخره .. وكلها مبنية على العلب والقهر.

نعم لا يفهم السنة من تفوته سيادة الأناة والصبر وسعة النظر وإيثار التوفيق والمصالحة فى الحلول النبوية لمشاكل ذلك المحيط المتقلب العنيف، ومن يفوته ملاحظة اختيار المصطفى دائماً لأكثر الحلول جمعاً للشمل، ومراعاة لظروف الناس، وأنسبها إعانة لهم على زمانهم. لا يفهم السنة من يفوته مزج الفضائل والمبادئ واستعمال الرسول لها معاً كمحاميع يلطف بعضها شدة بعض، ويكفل تساندها بلوغ حل مقنع للإنسان العادى . لا يجد المتأمل حلا للمصطفى من الحلول يمكن أن يوصف بأنه نظرى أو حرفى أو جامد يصدم الفطرة. ثم لا يفهم السنة من يفوته معنى تجرده عليه الصلاة والسلام ـ سراً وعلانية من كل غرض أو اتجاه شخصى، وكل ما يربط حياته بحياة الملوك والسلاطين، وكل ما يسمح بأن يوحد فى أمته من يتميز بالرفاهية أو السؤدد.

ينبهنا محمد عبد الله محمد إلى أن نداء الله فى الفطرة أعمق فى نفس الآدمى وأبعد غوراً من كل نداء آخر، غريزى أو كسبى، ولذا كان صوت هذا النداء الإلهى الآتى من أعمق الأعماق "هامساً خافتاً"، يسمعه الإنسان حين يخلو لنفسه ويتأملها بعيداً عن الضوضاء والصخب والشغب.